ذكرى

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحا بقليل، عندما وصلت فاطمة بسيارتها الملاكى إلى ميدان "عبده باشا"، وانعطفت السيارة إلى اليمين، وسارت عدة أمتار فى شارع يقع على ناصيته مكتب بريد العباسية، ثم أخذت السيارة تقل سرعتها تدريجيا إلى أن وقفت أمام باب مديرية التربية والتعليم.

نظر محسن إلى فاطمة، وكانت جالسة إلى يمين مقعد القيادة، وقال بصوت خافت وبنبرات صوت امتزجت بالحنان:

- انتظرى ياأمى.

مد محسن يده وفتح الباب الذى على يسار عجلة القيادة، وهبط من السيارة، ودار حول مقدمتها وذهب إلى الباب الأيمن وفتحه، وعاون فاطمة على الهبوط، وأغلق الباب، وقفت فاطمة على بعد خطوات قليلة من السيارة حاملة حقيبة يدها وحقيبة أوراقها، بينما عاد محسن إلى السيارة ليحكم إغلاقها.

عاد محسن إلى فاطمة بعد لحظات، وسار الإثنان بخطى وئيدة ذاهبين إلى باب المديرية، وعرجا فى طريقهما على موظف الاستعلامات، ثم اتجها إلى الدرج، وحانت من فاطمة التفاتة نحو الباب الآخر الذى يؤدى إلى الفناء، ونظرت إلى المبنى الصغير الأصفر اللون المكون من طابقين، ووضعت على واجهته لافتة كتب عليها "تنسيق الوظائف الإشرافية".

عندئذ طفت على صفحة ذهن فاطمة ذكرى أليمة لاتريد أن تبرحه رغم مرور أكثر من خمسة أعوام على حدوثها، ورأت فاطمة على صفحة خيالها صورة مديرة تنسيق الوظائف الإشرافية آنذاك وكأنها تشاهد شريط فيلم سينمائى، ورن فى أذنيها صوتها الخافت الرقيق عندما قالت فى أدب مفتعل:

- فى الواقع ياأستاذة فاطمة أنت نجحت فى تدريب مديرة مدرسة إعدادية.. بل كنت الأولى على دفعتك.. لكن، ليس لك الحق فى أن تتولى مهام القيام بهذه الوظيفة....

لاذت بالصمت برهة. ثم أردفت فى شئ من التردد:

- لكى تتولى هذا المنصب يجب أن تكونى...

وغمغمت ببضع كلمات لم تفهم فاطمة منها حرفا واحدا، ثم أردفت:

- هم أكثر منك استحقاقا لهذا المنصب. إنك...

فى هذه اللحظة، استولى على فاطمة شعور يشبه شعور من انقض عليه أحد الطيور الأسطورية الجارحة الضخمة،

وأخذ يمزق جسده إربا إربا بلا هوادة ولارحمة، وجاهدت لكى تستجمع شتات نفسها، وعندما استطاعت أن تستعيد قسطا قليلا فاهت ببضع كلمات تؤكد بها رغبتها فى تولى هذا المنصب، فانطلقت ألفاظ السباب والاتهامات من أفواه الموظفات كما ينطلق الرصاص من فوهة مدفع سريع الطلقات، وألفت فاطمة نفسها واقفة قرب منتصف الحجرة والكلمات تنهال عليها من كل جانب كما ينهال المطر الغزير، فلاذت بالصمت وغادرت الحجرة بسرعة.

ذهبت فاطمة إلى مديرة شئون العاملين وشكت لها ماحدث، فأيدت موقف زميلتها، وأغرتها بمزايا العمل الذى أسند إليها أداؤه، ونصحتها بأن تقبله لأن لايوجد مجال للتغيير.

وبعد محاولات يائسة اضطرت فاطمة إلى أن تتسلم العمل الذى تمارسه فى الوقت الحالى، والذى أدى ضيقها به إلى إصابتها بالمرض النفسى الذى تعانى منه،والحصول على أجازات مرضية متلاحقة، استمرت أعوامًا.

مالبثت أن اختفت صورة مديرة الوظائف الإشرافية من على صفحة خيال فاطمة، غير أن صوتها أخذ يتردد رنينه فى أذنى فاطمة بشدة أخذت تزداد رويدا رويدا إلى أن صارت طنينا لاقدرة لها على احتماله، وأحست بآلام صداع لايطاق، فاضطربت وضغطت براحتى يديها على أذنيها، ولم يتوقف الصوت، ومالبثت أن فقدت توازنها وسقطت على الأرض مغشيا عليها.

شعر محسن بانزعاج شديد وشحب وجهه حتى كاد يحاكى وجوه الموتى، وطلب من شاب سار على مقربة منه أن يأتى له بمقعد، وحاول أن يجعل فاطمة تفيق من غيبوبتها.

عاد الشاب بعد لحظات حاملا المقعد، ووضعه على مقربة من فاطمة، وعاون محسن على أن يجلساها على المقعد، وأتى شخصان آخران عاوناهما، فجلست فاطمة والتفوا بها بانتباه حتى لاتسقط على الأرض، وأتى طبيب، وبدأ فى العمل على إفاقتها، وانصرف الشاب والشخصين الآخرين بعد أن عادت فاطمة إلى وعيها.

بعد فترة قصيرة، تناولت فاطمة حقيبتها وحقيبة أوراقها من يد محسن، ورجته أن يعينها على النهوض، فاستندت إلى ذراعه، وسارا فى الممر بخطى بطيئة.

وقفت فاطمة قبالة موظف بسكرتارية مدير المديرية وقدمت له طلبا للنقل إلى عمل بإدارة أخرى،

ووضحت له ماتريد، وطلبت منه الحصول على تأشيرة موافقة مدير المديرية.

أعاد الموظف الطلب إلى فاطمة فى شئ من الاشمئزاز وقال:

- ممنوع النقل أثناء العام الدراسى.

- لدى ظروف تمنعنى من الاستمرار فى العمل.

- ليكن، انتظرى إلى أن ينتهى العام الدراسى.

تجهم وجه فاطمة قليلا، وكان محسن واقفا على يمينها، فمسك يد الموظف برفق وسار مبتعدا بضع خطوات والموظف يتبعه فى شئ من الاستغراب، وعندما وقفا أخبره فى همس بحالتها الصحية، فمس ذلك وترا حساسا فى صدر الموظف، ووافق على أن يعرض الطلب على مديرة المديرية، فأعطاه محسن الطلب فى رجاء، وهو يقدم إليه آيات الشكر والامتنان.

أثناء ذلك، فتح باب حجرة مكتب مديرة المديرية، وغادر شخص الحجرة، وترك الباب مواربا، فدفع حب الاستطلاع فاطمة إلى أن تختلس نظرة إلى داخل الحجرة، وهالها ما رأت، فتجهم وجهها فجأة، واستعرت فى صدرها نيران الغضب، واختطفت الطلب من يد الموظف ومزقته، وألقت به فى حقيبتها وغادرت المكتب، بينما حملق الموظف إليها فى ذهول إلى أن غابت عن عينيه.

تبعها محسن فى دهشة، ولحق بها فى الممر خارج المكتب، وألح عليها بالأسئلة ليعرف سبب ماحدث، فلم تجب فاطمة، فسار محسن إلى جوارها فى صمت رغم ماستولى عليه من دهشة وحيرة.

وداهمتها النوبة مرة أخرى، فضغطت براحتى يديها على أذنيها بشدة، وحمل محسن عنها حقيبة الأوراق، ونصحها بأن تنتظر برهة إلى أن تستريح فرفضت وتظاهرت بالقوة رغم أن مظهرها يوحى بغير ذلك، فكادت تهتز فى سيرها مما جعلها تستند إلى ذراع محسن وتتشبث به بقوة وكأنه طوق نجاة يحميها من السقوط.

وبعد قليل، كانت فاطمة جالسة بالسيارة، عندما وقف محسن على قيد بضعة أمتار منها يتحدث إلى الطبيب بالهاتف المحمول، يخبره بأن فاطمة أصيبت بالمرض من جديد.

وكان الطبيب فى الزيارة الأخيرة قد أخبر محسن بأن فاطمة شفيت من المرض، فتعجب فى نفسه، وأدرك أن المريضة من المؤكد أنها تعرضت لصدمة، فطلب من محسن أن يزوره بالعيادة برفقة والدته فى المساء، وأن يخبره بكل ماحدث.

عاد محسن إلى السيارة ساهما، وسألته فاطمة عن المكالمة الهاتفية، فأخبرها بأنه اتصل بزميله ليخبره

بأنه لن يستطيع الذهاب إلى العمل فى هذا اليوم، وقاد السيارة، وانطلقت بهما فى شوارع القاهرة المزدحمة فى طريق العودة إلى المنزل بشارع روض الفرج.

وكان الليل قد أرخى سدوله على الكون، وكسا المرئيات بأردية كثيفة يبدد بعض ظلامها الإضاءة المنبعثة من المصابيح بالمنازل والمحلات، عندما ذهبت فاطمة ومحسن إلى عيادة الطبيب.

أوشكت عقارب الساعة أن تشير إلى العاشرة، عندما جلست فاطمة على مقعد أمام مكتب الطبيب، سألها الطبيب عما تشعر به وبعد أن أجابت، طلب منها أن تروى له مافعلت فى ذلك اليوم، فقصت على مسمعيه كل ماحدث بالتفصيل.

اعتدل الطبيب فى جلسته، وفكر برهة، ثم تساءل:

- صفى لى شعورك عندما اختلست النظر من الباب الموارب.

اعتدلت فاطمة فى جلستها، و فى نبرات صوت عميقة كأنها انتزعتها من أعماق نفسها انتزاعا. أجابت:

- ما أن نظرت إلى داخل الحجرة ورأيت السيدة الجالسة على مقعد مدير المديرية حتى شعرت كأن سكينا حادة انغرس نصلها فى أحشائى بقوة، كانت

مديرية المديرية هى شاهيناز مديرة تنسيق الوظائف الإشرافية التى حذفت اسمى من كشوف الترقية إلى مديرين بالإعدادى، وأدرجته بكشوف أسماء الذين تمت ترقيتهم إلى رؤساء أقسام.

لاحت على وجه الطبيب آيات الحيرة، ولاذ بالصمت إلى أن فرغت فاطمة من حديثها وتساءل:

- لماذا أخفيت الأمر عن ابنك محسن؟

أجابت فاطمة:

- ابنى محسن مهندس شاب فى بداية حياته العملية، لم أرد أن يشعر بصدمة.

فكر الطبيب برهة وسألها عما انتوت أن تفعل، وشعر بالضيق عندما رأى أنها فى حيرة من أمرها، وأنها لا تطيق الذهاب إلى العمل بالإدارة التى ظلمتها، ولا تطيق الذهاب إلى المديرية لتنقل.

لاح التصميم على وجه الطبيب، وقال بثقة:

- سوف تتركين عملك وستذهبين إلى إدارة أخرى.

تساءلت فاطمة فى عدم تصديق:

- كيف ؟

- هذا شأنى.

وتناول التذكرة من فوق المكتب، وكتب عليها بضع كلمات، أعطاها لفاطمة وقال:

- كرري العلاج، وابتعدى عن كل ما يسبب لك الضيق أو الانفعال، تصحبك السلامة.

شكرته فاطمة وهى تنهض، وسارت متجهة صوب الباب، وبلغ أذنيها صوت الطبيب يقول:

- أرجو أن ترسلى إلىّ المهندس محسن.

- أمرك.

وعندما وقف محسن قبالة الطبيب وسأله عما يريد، كان الطبيب قد أوشك على الانتهاء من كتابة تقرير عن حالة فاطمة، فوقف برهة ينتظر.

أعطى الطبيب التقرير لمحسن، وطلب منه أن يقدم الطلب إلى المديرية وأن يرفق به هذا التقرير، سر محسن أيما سرور، وانساب فى جوفه جرعة كبيرة من الطمأنينة والارتياح، ووضع التقرير داخل حقيبة أوراقه، وبلغ أذنيه صوت الطبيب يقول:

- لاتحدثها عن هذا التقرير.

- أمرك.

وشكر الطبيب وسار متجها صوب الباب.